الفصل الخامس

الأخلاق والطبع والتطبع

يتعلق الطبع بالجانب النظرى الموروث فى الإنسان وما يقوم به مطاوعة بدون تكلف . وتعرف المعاجم اللغوية الطبع بأنه الخلق والجمع طباع . والطبيعة تعنى السجية أو مزاج الإنسان المركب من الأخلاط والطبائع . ويقال أمر طبيعى أى غير متكلف . وفلان مطبوع على كذا أى أنه ذو موهبة واقتدار فى فن أو مجال معين يعالجه بلا تكلف . والطبع والطبيعة من نفس المعنى ويعنيان السجية والمزاج، وقد قال الشاعر العربى :

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة . . فلا خير فى ود يجئ تكلفا

والطبع فى الاسلام شأنه شأن ذكاء الانسان ـ منه ما هو فطرى وما هو مكتسب ـ فالطبع الفطرى ما طبع عليه منذ نشأته وفطر عليه . والطبع هنا يعنى مراج الانسان وحالته الوجدانية والانفعالية والنفسية . أما التطبع فهو الطبع المكتسب من خلال التربية والتنشئة واكتساب العادات . فنحن لو نظرنا مثلاً إلى صفات مزاجية وانفعالية معينة مثل الحلم والأناة والحياء والحمق والغضب والرعونة وسرعة الانفعال وما شابهها نجد أن جانباً منها فطري عند علماء المسلمين وجانب منها مكتسب يتمثل فى التحكم والسيطرة على الصفة المزاجية قدر المستطاع . ومما يستدل به على فطرية مثل هذه الصفات فى طبع الانسان ومزاجه ما ورد فى حديث الأشج بن قيس اذ قال له رسول الله (ص) « إن بك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » وفى رواية أخرى عن البخارى الحلم والحياء قال الأشج : أجبلة جبلنى الله عليها (أى فطرنى الله عليهـا) ؟ قال : نعم . قال : الحمد لله الذى جبلنى على ما يحب الله ورسوله . من ناحية أخرى نجد قول الرسول (ص) « إنما الحلم بالتحلم والعلم بالتعلم » وقياساً على ذلك يقال إنما الخلق بالتخلق والطبع بالتطبع . وهذا القول يشير إلى الجانب المكتسب للطبع من خلال مداومة الإنسان على اكتساب العادة .

ويقول حجة الاسلام الإمام الغزالى إن الخلق والخلق عبارتان معاً . يقال : فلان حسن الخَلق والخُلق أى حسن الظاهر والباطن فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ويراد

بالخلق الصورة الباطنة . وذلك لأن الانسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدركة بالبصيرة . ولكل منهما هيئة وصورة إما قبيحة أو جميلة . فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر . ولذلك عظم الله أمرها بإضافتها إليه اذ قال تعالى « إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » . فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين . والمراد بالروح والنفس فى هذا المقام واحد . فالخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية . وهذا يعني أن الخلق صار تطبعاً فى الانسان . ومن المعروف أن التطبع أو تطبيع الانسان بمعني تعويده على عادات وطبائع جديدة واكتسابه لها هو لب معني التربية ووظيفتها الأولى الرئيسية .

وهذه الوظيفة سواء أحسن توجيهها أو أسئ . هى أشبه بعملية الطلاء أو الدهان للأسياء لتعطيها شكلاً ظاهرياً وصورة خارجية قد تختلف وقد تتفق مع جوهرها الحقيقى أو الداخلى . فإن كان الجوهر جيداً وكانت تربيته جيدة صح التطابق وصار الإنسان مستويا فى شكله ومضمونه أو جوهره ويكون حسن تربيته مواتياً لحسن جوهره . وهذا هو الإنسان المثالى . وكذلك الأمر اذا كان الجوهر خبيثاً والتربية خبيثة أيضاً تم التطابق وصار الانسان خبيثاً فى شكله ومضمونه. وهو الإنسان المرفوض غير المرغوب الذى يعتبر جناية على الوالدين وعلى المجتمع ولا يرجى له صلاح أو فلاح . أما الإنسان الذى حسن جوهره وأسيئت تربيته فهو أشبه بخضراء الدمن التى حذرنا منها نبينا الكريم بقوله (ص) : إياكم وخضراء الدمن . قالـــوا وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الجميلة فى المنبت السوء . لكن مثل هذا الانسان قد يرجى من ورائه صلاح وفلاح إذا أحسنت تربيته من جديد لأن جوهره طيب قابل للإصلاح والتوجيه . أما إذا كان جوهر الأنسان خبيثاً أو سيئاً وحسنت تربيته فإن سلوكه يكون حسناً فى الظاهر وفى المواقف العادية . أما اذا تغير الموقف وأصبح غير عادى فإن هذا الإنسان ينقلب إلى جوهره السئ ليكشف عن حقيقة السيئة . مثال ذلك الإنسان فى حالة الثورة والغضب الذى يلهب آذان خصمه بأقذر ألوان السباب والشتائم . ولذلك نصح الحكماء بحسن اختيار الناس : الجار قبل الدار والصديق قبل الطريق . ونصحوا أيضاً باختبار مدى صدق الحبيب أو الصديق بالمواقف التى تظهره على حقيقته .

وقالوا : لا يعرف الصديق إلا وقت الضيق . والمثل الشعبى المصرى يقول « حبيبك اللى انت عشمان فيه كتر عليه بالأسيه يبان لك جميع ما فيه » . وقد عبر عن ذلك الشاعر العربى بقوله :

ما أكثر الإخوان حين تعدهم . . لكنهم فى النائبات قليل

وهناك قصة معروفة عن الأعرابى الذى ربى فى منزله جرو ذئب منذ نعومة أظفاره وأرضعه بلبن شاة كانت عنده . ولما كبر الذئب واختلى بالشاه هجم عليها وقتلها فى غيبة صاحبها فلما رأى ذلك قال هذه الأبيات :

قتلت شويهتى وفجعتنيها . . وأنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينا . . فمن أنبأك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء . . فلا أدب يفيد ولا أديب

وفى هذا المعنى قال شاعر آخر :

ومن يصنع المعروف فى غير أهله . . يلاقى كما لاقى مجير أم عامر
أعد لها لما استجارت بقربه . . من الدر ألبان اللقاح الدوائر
أعدت له حتى إذا تمكنت . . فرته بأنياب لها وأظافر

وأم عامر كناية عن الضبع . وكان أحد الأعراب قد آواها وأطعمها فلما قويت واشتدت وثبت عليه وهو نائم وقتلته .

ونجد نفس المعنى فى قول شاعرنا :

ومن يفعل المعروف فى غير أهله . . يكن حمده ذما عليه ويندم

وهناك وجهة نظر مناقضة لذلك تقول :

اصنع جميلا ولو فى غير موضعه . . ما خاب قط جميل أينما وضعا

ويبدو أن المسألة تتعلق بالشخص الذى عمل فيه الجميل . فمن الناس من يشكر الجميل لصاحبه . ومن الناس من يعض اليد التى تقدم إليه الخير كما عبر الشاعر:

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته . . وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقال شاعر آخر :

أحسن إلى الناس تستبعد قلوبهم . . فلطالما استبعد الإنسان إحسان

ويقال إن الكفر بالنعمة وعدم شكرانها مخبثة لنفس المنعم أى أن نفسه تتألم لذلك وقد تكف عن عمل الخير . ولهذا قال الحكماء بأن الطبع يغلب التطبع . لأن الأول أصيل والثانى دخيل عليه .

وينبغى أن نشير إلى أنه من الثابت علميا أن الإنسان له قدرات فطرية مثل الذكاء والقدرات العقلية . وبالمثل يمكن أن يقال بأن للإنسان مزاجاً وطبعاً مزاجياً عاماً قد يتفق مع غيره وقد يختلف . يقول الجاحظ : « إعلم أن الله جل ثناؤه خلق خلقه ثم طبعهم على جلب المنافع ودفع المضار . . وهذا فيهم طبع مركب وجبلة مفطورة . . وهذه الخلال غرائز فى الفطرة وكوامن فى الطبع جبلة ثابتة وشيمة مخلوقة » . ويقول ابن خلدون (١٢٧) : « اعلم أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى " وهديناه النجدين " وقال "فألهمها فجورها وتقواها ". والشر أقرب الخلال إليه إذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء بالدين . وعلى ذلك الجم الغفير إلا من وفقه الله . ومن أخلاق البشر الظلم والعدوان بعض على بعض . فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه فقد امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع كما قال الشاعر :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد . . . ذا عفة فلعلة لا يظلم

ويقول في مكان آخر (١٤٢) : « وكان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة . لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه . وأما من حيث هو إنسان ، فهو إلى الخير وخلاله أقرب » . ومن طباع البشر - كما يرى علماء المسلمين - أنها لا تقبل من المعارف إلا ما يلائمها ويناسبها . كما أن النفوس يتحصل لها من العلوم بحسب ما تكتسبه منها . وقضية الطبع والتطبع قضية جدلية يحتدم حولها النقاش . وهذه القضية تحتاج منا إلى جهد كبير لفهمهما وتوضيحها وإلقاء الضوء عليها حتى نحكم تربية وتنشئة الإنسان على أساس من الفهم الصحيح لطبعه ومزاجه . وعندها نستطيع أن نحسن من أساليب تطبيعنا له أى تربيتنا وتنشئتنا له . ذلك أن الطبع والتطبع وجهان لعملة واحدة .

ويشير الغزالى إلى السبب فى حسن الخلق فيقول : قد عرفت أن حسن الخلق

يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة لكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً . وهذا الاعتدال حصل على وجهين : أحدهما بجود الهى وكمال فطرى بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق . والوجه الثانى اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة . (الإحياء : جـ ٣ ص ٥٦) . وهكذا يؤكد الغزالى على جانبى الطبع والتطبع فى أخلاق الإنسان . وهو يقول فى مكان آخر إن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح اذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير معا . (نفس المرجع ص ٥٨) .

الناس معادن :

يتعلق الطبع بجوهر الناس ومعادنهم ويرى كثير من الفلاسفة ومنهم الفلاسفة المسلمون أن الناس يختلفون فى طباعهم كالمعادن . فالناس معادن ومن كل المعادن تصادف أناساً فى حياتك . لقد نوه النبى (ص) إلى أن الناس معادن وأنهم يتفاوتون فى الوضاعاة والشرف والخير والشر بقوله فى الحديث الشريف « الناس معادن فى الخير والشر . خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا » (عبد الله علوان : ص ٣٧) .

وقديما قسم أفلاطون حكيم الإغريق الناس إلى ثلاثة معادن : الذهب والفضة والنحاس . وقد خضعت كثير من المجتمعات فى تطورها إلى تقسيم الناس إلى طبقات حسب معدنها وجوهرها . ومن أشهر التقسيمات الطبقية القديمة فى المجتمعات ما ساد فى الهند القديمة من تقسيم الناس إلى طبقات أعلاها البراهمة وأدناها المنبوذون . كما ساد تقسيم الناس إلى سادة وعبيد فى المجتمع الإغريقى أو اليونانى القديم . وهناك تفسيرات وتقسيمات كثيرة لطبع الانسان . فمنهم من يقسم طبع الإنسان إلى نارى وترابى . وبعضهم يقسم مزاج الإنسان إلى صفراوي وسوداوى ودموى وما إلى ذلك . وهناك جدل كثير حول طبع الإنسان ومازال هذا الجدل محتدماً ولم نصل إلى رأى فاصل قاطع فيه إنما هى مسألة اجتهادات لتفسير الموضوع . ولكل مجتهد نصيب . واذا نحن رجعنا إلى القران الكريم نجده بأنه وصف الإنسان بالهلع والجزع والمنع فى قوله تعالى فى سورة المعارج : « إن

الإنسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً » . ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الروم « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ». وفى تفسير هذه الآية حسب تفسير البيضاوى المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل يرد القول بأن الفطرة أو الخلقة التى طبع الله الناس عليها هى قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه أو ملة الإسلام . فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها . وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى زود الإنسان بأشياء فى طبعه يدركها بالفطرة . من ناحية أخرى نجد أن هذه الفطرة أو هذا الطبع يكتسب أشياء من خلال التربية والتنشئة . ويبدو أن تطبع الانسان أو ما يكتسبه بالتنشئة والتربية ما هو إلا قشرة أو غطاء على السطح تخفى تحتها الطبع الحقيقى للإنسان . فالإنسان الذى يبدو وديعاً مؤدباً فى الظاهر قد ينكشف عن إنسان سليط اللسان يسمعك أقذر الشتائم واللعنات اذا ما كشر عن أنيابه واستثاره الغضب كما أشرنا . هذا فى الإنسان الذى معدنه رخيص . أما معدن الذهب من البشر فيتكشفون فى أى موقف عن طبع أصيل كريم المحتد . فالتربية والتنشئة الاجتماعية والتعليم والتهذيب كلها أمور تخفى تحتها معدن الإنسان الحقيقى وطبعه المطبوع عليه . ويظهر هذا المعدن الحقيقى للإنسان فى مواقف الاختبار والشدة . ولذلك قيل لا يعرف الصديق إلا وقت الضيق . والإنسان اللئيم أو الماكر أو المخادع من يخفى طبعه الحقيقى بالمعسول من القول لكنه لا يستطيع أن يخفى طبعه بالفعال إلا اذا كانت مصطنعة ومقصودة . فالفعال عادة تكشف عن حقيقة مثل هؤلاء اللئام أو الماكرين أو المخادعين . وقد عبر عن ذلك شاعرنا بقوله :

يعطيك من طرف السان حلاوة . . ويروغ منك كما يروغ الثعلب

وقال آخر :

ثوب الرياء يشف عما تحته . . فإذا اكتسبت به فإنك عار

وقد يقال إن صفات مثل اللؤم أو الدهاء أو الرياء أو الجود أو الشجاعة أو الجبن أو البخل وغيرها هى صفات مكتسبة بمعنى أن الإنسان يكتسبها من خلال نوع التربية التى خضع لها والتنشئة التى نشئ عليها . وهذا صحيح لكن لا ننسى أن كل إنسان ميسر لما خلق له . ولن يكتسب الإنسان شيئا ما لم يكن طبعه مواتياً له .

رأى جالينوس فى الطبع والتطبع :

جالينوس * طبيب إغريقي قديم له شهرة واسعة فى الطب لا سيما فى علم التشريح . وقد اشتغل أيضا بالفلسفة وبرع فيها . وقد اقتدى به الأطباء المسلمون . ويقابله عند المسلمين ابن سينا . ويضرب به المثل فى الطب.وتردد اسمه على ألسنة الحكماء والشعراء العرب والمسلمين . ومن أمثلة ذلك قول الشاعر العربى :

يموت راعى الضأن فى جهله . . ميتة جالينوس فى طبه

وهو يرى أن الناس من حيث الطبع ينقسمون إلى ثلاثة أنواع : نوع خير بطبعه وهم قليلون ولا ينتقل إليهم الشر ، ونوع شرير بطبعه وهم كثيرون ولا ينتقل إليهم الخير ، ونوع متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأخيار وتوجيههم إليه . وقد ينقلون إلى الشر بمقاربة أهل الشر وإغوائهم . وهو بهذا يرى أن الطبع الانسانى منه ما هو ثابت وفطرى فى الانسان ومنه ما هو مكتسب بالتطبع والمخالطة والتنشئة . وهو يرد على الرواقيين فى زمانه ومن نحا نحوهم ممن يقولون بأن الناس كلهم يخلقون أخياراً بالطبع ثم يصيرون بعد ذلك أشراراً بمجالسة أهل الشر والميل إلى الشهوات الرديئة التى لا تقمع بالتأديب فينهمكون فيها ويتوصلون إليها من كل وجه ولا يفكرون فى الحسن منها والقبيح. ويقول فى رده عليهم : إن كان كل الناس أخياراً بالطبع والشر ينتقل إليهم بالتعليم فإما أن يكون تعلمهم الشر من أنفسهم أو من غيرهم . فإن كان تعلمهم من غيرهم فإن المعلمين الذين علموهم الشر يكونون أشراراً بالطبع . فليس كل الناس اذن أخياراً بالطبع . واذا كان قد تعلموه من أنفسهم فإما أن يكون فيهم قوة يشتاقون بها إلى الشر فقط ومن ثم يكونون أشراراً بالطبع ، وأما

---

* قال المسعودى : كان جالينوس بعد المسيح عليه السلام بنحو مائتى سنة . (أى قبل الإسلام بنحو أربعمائة سنة) . نقلاً عن شرح ابراهيم الابيارى للزوميات لأبى العلاء المصرى : ٣٨٣

أن يكــون فيهم مع هذه القوة التى تشتاق إلى الشر ، قوة أخرى تشتاق إلى الخير إلا أن قوة الشر غالبة قاهرة لقوة الخير وعلى هذا يكونون أشراراً بالطبع . وهو يرد أيضـا على القـائلين بأن كل الناس أشـرار بالطبع لأنهم خلقـوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم وأنهم يصيرون أخياراً بالتأديب والتعليم ، إلا أن فيهم من هو غاية فى الشر لا يصلحه التأديب وفيهم من ليس فى غاية الشر ، فيمكن أن ينتقل من الشـر إلى الخير بالتـأديب من الصبـا ثم بمجالسته الأخيـار وأهل الفـصل . ويفند رأيهم وحججهم بنفس المنطق الذى اتبعـه فى الرد على الرأى السابق (ابن مسكويه : ٤٢ - ٤٣) .

رأى ابن مسكويه فى الطبع والتطبع :

يعتبر ابن مسكويه المعلم الثالث بعد أرسطو والفارابى . وهو من أوائل علماء المسلمين الذين تكلموا باستـفاضة عن علم الأخلاق وموضوعه . وهو إن كـان متأثراً فى آرائه بفلاسفة الإغريق إلا أنه عدل فيمـا نقله عنهم ليناسب الفكر الإسلامى ويتمشى معه . وفى رأيه عن الطبع والتطبع فى الانسان يسلك مسلك أرسطو الذى يقـول بأن من الناس من هو خيـر ومن هو شرير ، وأن الشرير قـد ينتقل بالتأديب إلى الخيـر ولكن ليس على الإطلاق . فـمن الأشـرار من يقـبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة ومنهم من يتحرك إليها ببطء . وهو يعرف الخلق بأنه حال للنفس داعيه لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رؤية . وهذه الحالة على نوعين : منها ما يكون طبيعيـا من أصل المزاج ومنها مـا يكون مستـفاداً بالعـادة والتدريب المستـمر حتى يصيـر ملكة وخلقا . ويقـول فى (ص ١٨١) ولذلك حكمنا أن بعض الناس أخيـار بالطبع ومنهم أخيـار بالشرع والتعليم . ويفهم من هذا أن ابن مسكويه يرى من الخلق ما هو طبيعى ومنه ما هو مكتسب . والواقع أنه ليس واضحـاً فى ذلك . لأنه يعـود فـيقـول بأن كل خلق ليس من الطبع. وذلك باستخدام القياس المنطقى فى قضـية تتكون من مقدمتين ونتيجة على النحو الآتى :

المقدمة الأولى : كل خلق يمكن تغييره .

المقدمة الثانية : كل ما يمكن تغييره ليس من الطبع .

النتيجة إذن : كل خلق ليس من الطبع .

فإذا كان كل خلق ليس من الطبع فكيف نوفق بين قوله هذا وبين ما سبق أن ذكرناه من قوله بأن بعض الناس أخيار بالطبع ؟

وهو يدلل على صحة المقدمة الأولى بما جاءت به الشرائع السماوية لهداية الخلق وتوجيههم وبما هو واقع ومشاهد فى العيان من وجوب التأديب ونفعه وتأثيره فى الأحداث والصبيان . ويستدل على صحة المقدمة الثانية بأننا لا نروم أبداً تغيير شئ مما هو بالطبع . فلا أحد يروم تغيير حركة الحجر فى سقوطه إلى أعلى بدلاً من سقوطه إلى أسفل . ولو رامه ما صح له تغيير شئ منه ولا مما يجرى مجراه . ويخلص من التدليل على صحة المقدمتين إلى تأكيد صحة برهانه واستتنتاجه وهو أن الخلق يكتسب بحسب استعداد الإنسان له . ويقول فى ذلك . إن مراتب الناس فى قبول الآداب التي نسميها خلقاً والمسارعة إلى تعلمها والحرص عليها ، كثيرة . وهى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال . فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعل الرجل التام الذى انتهى فى نشئه وكماله إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه ، فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه . وعندما نتأمل أخلاق الصبيان نجد استعداد بعضهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه . وبعضهم يظهر فيه القحة وآخرون يظهر فيهم الحياء . وترى فيهم الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده . والناس مراتب فى قبول الأخلاق الفاضلة وليسوا علي رتبة واحدة. وإنما تتفاوت أحوالهم فمنهم المواتى والممتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر والخير والشرير . والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب لا تحصي كثيرة . واذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم نشأ كل انسان على سوم طباعه ويقى عمره كله على الحال التى كان عليها فى الطفولة . وتبع ما وافقه فى الطبع من غضب أو لذة أو زعارة (سوء الخلق والأزعر سئ الخلق) أو شره وغير ذلك من الطباع المذمومة . (ابن مسكويه : ٤٣ - ٤٥) . وهو يرى أن الشريعة هى التي تقوم الأحداث والصبيان وتعودهم الأفعال المرضية وتهئ نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل وبلوغ السعادة الإنسانية بالفكر الصحيح والقياس

المستقيم . وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات من ضربٍ اذا دعت الحاجة ، أو توبيخ لصدهم ، أو اغراء بمكافأة أو تحذير من العقوبة . وهو يرى أن صناعة الأخلاق أفضل الصناعات كلها لأنها تعنى بتحسين أفعال الانسان (المرجع السابق : ٤٦) .

ويعتقد ابن مسكويه بأن من نشأ من الصبيان على غير مذهب التأديب لا يرجى فلاحه ، ولا ينبغى الاشتغال بصلاحه وتقويمه لأنه صار بمنزله الخنزير الوحشى الذى لا يطمع فى رياضته . وأصبحت نفسه العاملة خادمة لنفسه البهيمية والغضبية . فهى منهمكة فى مطالبها من النزوات . وكما أنه لا سبيل إلى رياضة سباع البهائم الوحشية التى لا تقبل التأديب كذلك لا سبيل إلى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها وأمعن قليلاً فى السن . اللهم إلا أن يكون فى جميع أحواله عالماً بقبح سيرته ذامالها عائبا على نفسه عازما على الإقلاع والإنابة . فإن مثل هذا الإنسان من يرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج ، والرجوع إلى الطريقة المثلى بالتوبة ومصاحبة الأخيار وأهل الحكمة وبالإكباب على التفلسف (ص ٧٥) .

وجهات النظر حول الطبع والتطبع :

تختلف وجهات نظر المفكرين والفلاسفة حول الطبع والتطبع لدى الانسان ويمكننا أن نميز بين أربعة اتجاهات فى هذا الصدد :

١ - الاتجاه الأول : يرى أن الإنسان خلق خيرا بطبعه والشر عارض عليه ومن أنصار هذا الرأى سقراط الذى كان يعتقد بأنه فى طبيعة الانسان الكمال وعنده طيب وحسن نية ، وتحوله عن ذلك يكون بسبب الجهل . وعلى هذا فالأشرار فى نظره لا ذنب لهم إلا جهلهم بحقيقة مقاصدهم وغاياتهم وجهلهم بالوسائل التى تؤدى إليها . وعلاجهم يكون بتبصيرهم بحقيقة الخير ووسائله. والرواقيون من فلاسفة الإغريق القدماء يرون أن الإنسان جزء من الطبيعة الخيرة الصادرة عن الله وهو خير محض وأن الشر يلحقه من مجالسة أهل الشر . وچان چاك رسو آمن بأن كل شئ جميل من يد الخالق وأن طبيعة الإنسان خيرة . ومن علماء المسلمين فى هذا الاتجاه مفكرو السلف عموماً

ومنهم فريق من المعتزلة وابن تيمية وابن قيم الجوزية . وهم يرون أن الانسان مخوق لله وهو لهذا خير بطبعه لأن الله لا يصدر عنه إلا الخير . وابن خلدون يرى أن الانسان مهيأ للخير والشر معاً لكن استعداده للخير أكثر وهو أقرب من حيث أنه إنسان .

٢- الاتجاه الثاني : يرى أن الإنسان شرير بطبعه والخير عارض عليه ومن أنصار هذا الرأى الفلسفة البوذية والنظرة المسيحية التى ترى فى خطيئة آدم دليل على تأصل البشر فى الإنسان ولولا ذلك لما عصى ربه . ومن المؤمنين بهذا الرأى أبو العلاء المعرى . فقد كان يرى أن الشر من طبيعة الانسان والخير صنعة عارضة عليه يفترق الناس عليها مظهراً إلا أنهم لا يلبثون أن يعودوا إلى أصلهم عند الاختبار . وفى هذا المعنى يقول (أبو العلاء المعرى:٨٩):

إن مازت الناس أخلاق يعاش بها . . فإنهم عند سوء الطبع أسواء

أى أن الناس وإن تمايزوا بالأخلاق فإنهم سواسية فى سوء الطبع . ذلك أن الخلق مكتسب لا ينبعث عن طبع أصيل . ومن أنصار هذا الرأى الفيلسوف الانجليزى هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م) الذى ذهب إلى القول بأن طبيعة الإنسان شريرة فى جوهرها لما تنطوى عليه من حب الحرب والقتال . فالإنسان ذئب مع أخيه الإنسان يخاف كل منهما الآخر ويخشاه . وفى تفسير ذلك يقول « هوبز » إن فى طبيعة الإنسان أسباباً رئيسية تحمله على حب القتال. أولها المنافسة . فالإنسان يلجأ إلى العنف ليجعل نفسه سيداً على غيره . والثانى سوء الظن ويكون استخدام العنف هنا من أجل حمايته لنفسه . أما السبب الثالث فهو حب المجد والتفاخر بالمال والأنساب والألقاب . وهو رأى لم يسلم من النقد ولا يستقيم مع التصور الصحيح للطبيعة الإنسانية . وربما أن ما رآه هوبز فى عصره من اضطراب وصراع بين الأمم وطبقات الناس ما جعله يكون فكرته السوداء عن الطبيعة الإنسانية .

ويذهب « هربرت سبنسر » أيضاً إلى القول بأن الإنسان مطبوع على الشر وسوء الخلق . ويبرهن على ذلك بقوله : « إن الأطفال إذا تراكوا بلا مراقب كانوا أقسى على بعضهم من الكبار . وكلما صغرت سنهم زادت قسوتهم .

ثم يستطرد إلى القول بألا نرجو من الطفل حظاً وافراً من كرم الطباع لأن الناس مهما بلغوا من التمدن فإنهم نسل أمم متوحشة . ولابد أن يشبه ابن آدم في صغر سنه أسلافه المتوحشين » . لكن سبنسر يؤكد أهمية الدور الذى تلعبه التربية فى تغيير طبع الإنسان واستئناسه .

٣ - الاتجاه الثالث : يرى أن الطبيعة الانسانية محايدة . فهى لا خيرة ولا سريرة وإنما يكتسب الإنسان الخير والشر حسب ما يعود عليه من صغره وصباه . وقد ذهب إلى هذا الرأى من المفكرين الغربيين جون لوك صاحب النظرية المشهورة بأن عقل الطفل عندما يولد صفحة بيضاء Tabula Rasa . وهذا هو موقف علماء المسلمين استناداً إلى قول الرسول (ص) كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه » . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله عز وجل « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » . وقوله سبحانه جل شأنه « وهديناه النجدين » . كما أن من الناس من هو جاحد ومنهم من هو شكور .

٤ - الاتجاه الرابع : ويمثله القائلون بفطرة الأخلاق والطبع الإنسانى . وأصحاب هذه النظرة يرون أن طبيعة الانسان تتحدد بمزاجه الخلقى الذى يولد به . وهو ثابت ولا يمكن تغييره أو تبديله . فالانسان قد يخلق خيراً أو شريراً بحسب مزاجه الخلقى الفطرى . ولا يمكن تغيير هذه الصورة الخلقية أو نتحكم فيها مثلها مثل عدم إمكانية تغيير الصورة الجسمية الدميمة أو الجميلة . وممن يقولون بهذا المبدأ جالينوس الإغريقى . وهو يقول فى ذلك إن الناس يختلفون فى الطباع فمنهم من جبل على الشر غير مستعد للخير وهم كثيرون ، ومنهم من طبع على الخير لا يتحولون إلى الشر وهم قلة . ومنهم أيضا الفيلسوف الألمانى شوبنهور (١٧٨٨ - ١٨٦٠ م) ويقول في ذلك : يولد الناس أخياراً أو أشراراً كما يولد الحمل وديعا والنمر مفترساً . وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعاداتهم كما يصف التاريخ الطبيعى حياة الحيوان » .

وممن يقول بهذا المذهب أيضا « ليفى برول » الفليسوف الفرنسى . وهو يقول

فى ذلك : إن ميولنا الحسنة أو القبيحة التى نجئ بها إلى هذا العالم عند ولادتنا هى طبيعتنا فكيف نكون مسئولين عن طبيعة هى ليست من عملنا أو على الأقل ليست من عملنا الشعورى الاختيارى ؟ » (السيد محمد بدوى : ١١) .
ويتصل بهذا المذهب أو هذا الاتجاه القائلون بحتمية الأخلاق أو الاخلاق الحتمية بمعني تحديدها سلفا منهم الفليسوف الألمانى كانط الذى يقول فى ذلك « إن الذى يشاهد الإنسان فى ظرف معين ويعرف سوابق تصرفاته في مثل هذا الموقف يستطيع أن يتنبأ تنبؤا صادقاً بما سيفعله فى هـــذا الظرف كما يتنبأ العالم الفلكى بكسوف الشمس وخسوف القمر فى ساعة محددة . ومن أصحاب هذا الاتجاه أيضا الفليسوف الهولندى « اسبينوزا » إذ يقول : « إن أفعال الناس ، كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية ، تحدث ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية كما يتستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث تساوى زاويتين قائمتين » . (نقلا عن المرجع السابق : ١٠) .

ويتسدل القائلون بفطرة الأخلاق والطبع الإنسانى على قولهم بدليلين :

الأول : أن طبع الانسان وخلقه مثله مثل شكله وهيئته . فكما أنه لا يمكن تغيير خلقة الإنسان الدميم إلى إنسان وسيم فكذلك لا يمكن تغيير طبيعته وفطرته التي خلقه الله عليها .

الثانى : أن كثيراً من الروحيين والمتصوفة ممن جاهدوا أنفسهم لتحطيم قوتهم وغرائزهم الشهوانية أو الغضبية لم يحققوا نجاحاً .

ويمكن الرد على الدليل الأول بأنه على الرغم من أنه من الصعب تغيير شكل الإنسان وهيئته فإنه يمكن تجميلها وتحسينها . وكذلك الأمر بالنسبة للأخلاق فإنه يمكن تجميلها وتهذيبها وصقلها . وهذا ما يذهب إليه الإسلام . فلنا فى رسول الله أسوة حسنة . وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق . وورد فى الأثر : حسنوا أخلاقكم . وغير ذلك مما أشرنا إليه .

أما الدليل الثانى فمن السهل الرد عليه بأن هناك أمثلة كثيرة أيضا على نجاح كثير من الناس فى كبح جماح شهواتهم وغضبهم . وأنه اذا كان من الممكن ترويض الحيوان واستئناسه فلا شك أن ذلك أيسر بالنسبة للإنسان .

إن الطبيعة الإنسانية تتسم بالمرونة والمطاوعة . وهى قابلة للتشكيل والصقل تبعاً للمؤثرات الواقعة عليها . وطبع الإنسان قابل للتغيير والتطبع . ويمكن للإنسان أن يغير من طبعه ومن أخلاقه . ولو كانت الأخلاق أو الطباع ثابتة لا تقبل التغيير لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حسنوا أخلاقكم) كما أشرنا . فالأخلاق تهذب والنفس تتحلى بالأخلاق الحميدة والأداب الكريمة بالتطبع. ويرد الغزالى على من يقول بثبوت طبع الانسان وعدم قابليته للتغيير فيقول : كيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغير خلق البهيمة ممكن . اذ ينتقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس والكلب من شره الأكل إلى التأديب والإمساك والتحلية والفرس من الجماح إلى السلاسة والإنقياد وكل ذلك تغيير للخلق .

ولا يقلل من ذلك وجهة النظر المضادة التى ترى أن طبيعة الإنسان ثابتة فى كل زمان ومكان غير قابلة للغيير أو التعديل . وقديماً قال سقراط « إن الفضيلة هبة من الله » . ومن السهل الرد على هذا الرأى لأنه وإن كان كل شئ هبة من الله فإن الفضيلة تتعلم . والفضائل صفات يكتسبها الإنسان من خلال تنشئته وتربيته . وهكذا تتأكد أهمية الدور الذى تقوم به التربية فى تشكيل طبيعة الإنسان وتوجهها . وهذا يعنى بالنسبة للمربى مسئولية كبرى تفرضها عليه الأمانة التي يحملها فى بناء أجيال عربية مسلمة تخدم أوطانها وتحقق أمال أمتها .